الصراع الدوناتي الكاثوليكي

الدكتورة خديجة منصوري

جامعة وهران

أولا: ظهور الدوناتية

أدى الصراع الذي عرفته الأوساط الدينية الإفريقية في القرن الرابع إلى ظهور انشقاق تجسد في انفصال مجموعة من رجال الدين عن باقي زملائهم من السلك الكهنوتي وظهور الدوناتية. ويتضح من كتابات رجال الجدل الكاثوليك أن هؤلاء هم الذين أطلقوا على الكنيسة التي أسستها العناصر المنشقة عن الكنيسة الكاثوليكية اسم "الكنيسة الدوناتية" نسبة إلى الأسقف دوناتوس "Donatus" من قرية الديار السود (Casae Nigras) الواقعة شمال باتنة بمقاطعة نوميديا الذي كان له دورا هاما في تأسيسها، والأسقف دوناتوس القرطاجي"Donatus Carthaginensis" الذي نظمها.

تسمح المعطيات الواردة في كل من كتابات رجال الدين، والمحاضر الرسمية لبعض القضايا التي عرضت أمام الجهاز الإداري والتي لها علاقة ببعض الشخصيات الدوناتية والكاثوليكية،ومحاضر المجامع الدينية بموافقة الأسقف أوبطاتوس "Optatus" الميلي حين يرجع جذور هذا الانشقاق إلى اضطهاد الإمبراطور دقليانوس "Dicletianus" للنصارى[1]، وإلى أحداث قرية أبيتنا بالبروقنصلية في مطلع سنة 304، وما تسببت فيه من ظهور مرة أخرى مشكلة العناصر التي ارتدت عن المسيحية بسبب ضعفها أثناء الاضطهاد وتسليمها الكتب

1- Optatus, De schismate donatistarum, I,13-14, Patrologie Latine (=P.L.), XI. Paris, Migne, 1845,col, 908.

المقدسة. ومما زاد من خطورة المشكلة هو اختلاف رجال الدين حول قبول أو رفض هـؤلاء المرتدين، هذا الاختلاف الذي دفع مجموعة من الأساقفة الرافضين لعودة المرتدين إلى صفوف الكنيسة إلى الانفصال عن الأساقفة الذين تسامحوا مع العناصر المرتدة، وتأسيس كنيسة تضم حسب مؤسسيها العناصر التي صمدت أثناء الاضطهاد الديني دون غيرهم من المرتدين.

أما فيما يتعلق بالتاريخ الفعلي للظهور العلني للدوناتية، فلا يمكـــن تحديـــده إلا بعـــد الإطلاع على التطورات التي عرفتها الكنيسة الإفريقية في الفترة الممتدة من انعقاد مجمع سيرتا (Concilli Cirtensis) سنة 305 وحتى سنة 312 لما لتلك الفترة من أهمية في ظهور الدوناتيـــة .فأهم ما يلفت الانتباه بخصوص هذا المجمع ذلك الانشقاق الذي كاد أن يحدث اثر محاولـــة سيكوندوس "Secundus" كبير أساقفة نوميديا التحقيق مع الأساقفة الحاضرين في هذا المجمع حول مواقفهم أثناء الاضطهاد، بحيث اضطر سيكوندوس أمام إصرار هؤلاء الأساقفة على الانفصال في حالة مواصلة التحقيق معهم إلى غض النظر عن مشكلة الارتداد قائلا "أنتـــم تعرفون بعضكم بعضا والله يعرفكم".[1] ومما لاشك فيه أن المناقشات الـــتي دارت في مجمـــع سيرتا قد ساهمت في تهيئة الأرضية لظهور الدوناتية، لا سيما بعد الخلافات التي نشبت بـــين سكان الريف المؤيدين لسيلفانوس"Silvanus" والأثرياء المعارضين له، والتي سرعان ما غذتها دوافع أخرى متنوعة نلخصها في الآتي:

الدوافع الذاتية

تعجيل بطرس "Bsueto" وكيليستوس "Caelestus" بدعوة أساقفة المدن المجاورة لقرطاجـة دون غيرهم إلى عقد مجمع لانتخاب أسقف جديد يحـــل محـــل الأســـقف منصوريـــوس "Mensurius" المتوفى، حتى تتاح لأحدهما فرصة الفوز بهذا المنصب، غير أن اختيار المجمـــع

1- Ibid., I. 13-14. P.L., XI, col, 910-915 ;S.Augustin, Contra Cresconium, III, 27-31, P.L., XLIII. Paris, Migne, 1845, col 511-512 ; id., Contra Gaudentium, I, 37, 47, P.L., XLIII, col. 735 ;id., De unico baptismo contra Petilianum , 17 , 31 , P.L., XLIII , col , 612

لكيكليانوس "Caecilianus" خيب أملهما وأثار سخطهما عليه، فلم يعترفا به طالما حرمهما من تحقيق أمنيتهما.[1]

تدخل رجال الدين القرطاجيين الذين كانوا يساعدون الأسقف منصوريوس في الإشراف على ممتلكات الكنيسة ومطالبتهم بالتحف الثمينة التابعة لهذه الأخيرة التي تركها كيكليانوس قبل توجهه إلى روما لتفسير موقفه أثناء اضطهاد سنة 304 وانفصالهم عن هذا الأخير.[2]

انضمام لوكيلة "Lucilla" إلى صفوف المعارضين، هذه الأخيرة التي استغلت هذه الظروف للانتقام من كيكليانوس الذي كان قد جرح شعورها في فترة سابقة حين نصحها بالتخلي عن تقبيل قطعة عظم كانت تحملها معها في أوقات الصلاة.[3]

الدافع الديني

اتصال دوناتوس الديار السود بأساقفة نوميديا واطلاعهم على ما كان يجري بقرطاجة، فما علموا بذلك حتى أسرعوا إليه وانضموا إلى المعارضين القرطاجيين، وسرعان ما اجتمع المعارضون الذين وصل عددهم إلى سبعين أسقف في سنة 312 بمنزل لوكيلة بقرطاجة وأعلنوا عدم شرعية انتخاب كيكليانوس مبررين ذلك بعدم حضورهم الاجتماع، وعدم العمل بالعادة التي تقضي بأن يعيين أسقف قرطاجة من طرف كبير أساقفة نوميديا، زيادة على اتهام الأسقف فليكس أبثوغني "Felix Abthugni" الذي سام كيكليانوس بتسليم الكتب المقدسة أثناء الاضطهاد الديني لسنة 304، وبالتالي فهو مرتد عن المسيحية ولا يجوز له حسب رأيهم تنصيب كيكليانوس.[4] ونجحت لوكيلة في المجمع المنعقد بدارها في التأثير بفضل أموالها على بعض الأساقفة وكسبهم إلى صفها للتصويت على ماجورينوس

1-Optatus, I, 20, P.L., XI, col, 918-923 ; S.Augustin, Contra epistolam Parmeniani, I, 5, P.L., XLIII, col, 37.
2-S.Augustin, Contra Fulgentium Donatistas, XII, P.L., XLIII, col, 768
3-Optatus, I, 16 ; 18-19. P.L., XI, col, 916-917, 919-921
4- S.Augustin, Contra epistolam Parmeniani, I, 1, 5, P.L., XLIII, col, 37

"Majorinus" الذي رشحته لمنصب الأسقف عوض كيكليانوس، وفعلا اختير ماجورينوس أسقفا ووجه المجمع رسائل إلى كل الكنائس الإفريقية يطلب منها قطع علاقاتها بكيكليانوس.[1] وكان لهذه الخلافات انعكاسات سلبية على الكنيسة الإفريقية، بحيث أدت إلى تشتيت شمل المسيحيين وانفصال مجموعة من رجال الكنيسة عن إخوانهم من السلك الكهنوتي، وبالتالي ظهور فريقين يؤيد أحدهما كيكليانوس والثاني يناصر ماجورينوس، وبعد فترة زمنية قصيرة يتوفى هذا الأخير ويخلفه الأسقف دوناتوس.

يتضح مما تقدم أن معظم الدوافع التي كانت وراء عدم الاعتراف بالأسقف كيكليانوس هي دوافع شخصية. أما الدافع الديني المتمثل في عدم شرعية المهام الدينية التي يباشرها هذا الأسقف طالما أن الذي سامه أسقف مرتد ما هي إلا وسيلة لتدعيم موقفهم، لاسيما و أن التحريات التي أجريت حول فليكس أبثوغني في سنة 314 أثبتت عدم ضعفه أثناء الاضطهاد[2]، وخلافا لذلك أثبت التحقيق الذي جرى في الثامن ديسمبر سنة 320 أمام زينوفيلوس"Zenophilus"حاكم نوميديا صحة الاتهام الموجه للأسقف الدوناتي سيلفانوس بشأن تسليمه الكتب المقدسة التي كانت موجودة بكنيسة سيرتا في سنة 303.[3] ولعل ما يؤكد وجود عناصر مرتدة في صفوف الدوناتيين مثلما هو الحال لدى الكاثوليك هو فشل الأساقفة الذين حضروا مجمع سيرتا سنة 305 والذين كان لمعظمهم دورا هاما في ظهور الدوناتية في إيجاد حل لمشكلة الارتداد.[4] وبالتالي فإن وجود عناصر دوناتية مرتدة تنادي بضرورة الانفصال عن كيكليانوس بسبب ارتداده يفقد الدافع الديني المتمثل في الارتداد عن المسيحية أهميته في ظهور الدوناتية، ويؤكد وجود دوافع خفية ساعدت على ظهورها. كما أن المناقشات التي دارت بين الكاثوليك والدوناتيين في اجتماع قرطاجة سنة 411 تكشف

1- Optatus, I, 19 ; I, 20, P.L., XI, col, 922-925
2-Acta Purgationis Felicis, C.S.E.L., XXVI, pp. 197-204
3- Gesta apud Zenophilum, C.S.E.L., XXVI, pp. 185-1
4- S.Augustin. De unico baptismo contra Petilianum, 27, 31, P.L.. XLIII. col. 612

عن رهافة الدافع الديني، خاصة وأن كل طرف حاول التأكيد أنه الممثل الحقيقي "للكنيسة الكاثوليكية" في الوقت الذي بقيت مسألة الارتداد التي يعتقد أنها كانت وراء الانشقاق خارج إطار المناقشات. ودائما في هذا السياق يزيد كل من الإطار الزمني والمكاني الذي ظهرت فيه الدوناتية ضعف الدافع الديني، لاسيما وأنه لم ينجر عن الارتداد عن المسيحية في مناطق أخرى انشقاق ديني بالصورة وبالقوة التي عرف بها الانشقاق الذي ظهر في شمال إفريقيا.

الدوافع الخفية

1- الوضعية المزرية للسكان الناجمة عن سياسة الاستيلاء على الأراضي الزراعية، هذه السياسة التي كان لها دورا كبيرا في تغيير البنية الاجتماعية لشمال إفريقيا طيلة الاحتلال الروماني وبصفة خاصة ابتداء من النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي، بحيث تحول أصحاب الأراضي إلى مجرد يد عاملة بالضياع الكبرى التابعة للمعمرين أو للعائلات المحلية، وارتفعت نسبة البطالة خاصة في أوساط القبائل التي طردت من أراضيها نحو المناطق السهبية، كما حرم الرحل من مراعيهم لاسيما بعد امتداد الليمس نحو الجنوب.

2- السياسة الضريبية التي عجز السكان بصفة عامة والفقراء منهم بصورة خاصة على تحملها، والتي ترتب عنها فقدان بعضهم لأراضيهم واضطرار البعض الآخر إلى طلب الحماية من كبار الملاك لعلهم ينقذون أراضيهم من الضياع لكن ذلك زاد من حالة البؤس التي كانوا يعيشونها. وعوض الحماية التي كانوا يطمحون إليها أصبحوا يعانون من استغلال مزدوج: استغلال من طرف السلطة الرومانية وآخر من طرف الأغنياء.

3- ولا تقل العوامل الاجتماعية التي ساهمت في ظهور الدوناتية عن العوامل الاقتصادية بل هي مكملة لها. فهي تكمن في الحصار الاجتماعي الذي فرض على مختلف فئات المجتمع، هذا الحصار الذي منع ديناميكية التحرك الفئوي، قيد انتقال الأفراد من فئة اجتماعية لأخرى، قضى على إمكانية تحسين الظروف المعيشية خاصة بالنسبة للفئات الفقيرة. وتسبب

في تحول المزارع الحر إلى شخص لا يختلف كثيرا عن العبد سواء من حيث المستوى المعيشي أو من حيث حقوقه المدنية.

وكانت النتيجة الحتمية لهذه السياسة الاقتصادية والاجتماعية أن أثارت سخط المتضررين منها، وشجعتهم على قطع صلتهم بكل ما له علاقة بالسلطة الرومانية وأولها الكنيسة الكاثوليكية التي اعتبروها الممثل الفعلي للجهاز السياسي بعد تحول موقفها من الأوضاع السائدة آنذاك ودفعتهم إلى الانضمام للكنيسة الدوناتية.

4- تحول الكنيسة عن مسارها النضالي. فبعد أن كانت هذه الأخيرة حتى مطلع القرن الرابع تعبر عن حس المعارضة للإمبراطورية الرومانية المنتشر وسط السكان وتشاركهم شقائهم الروحي والبدني وتعطيهم الأمل في حياة سماوية أفضل، أصبحت منذ مطلع هذا القرن نصيرا للنظام الاستعماري الروماني متخلية عن أهدافها الداعية لنشر العدالة والمساواة، وكان ذلك اثر الامتيازات الهائلة التي حظيت بها بعد تنصر السلطة الرومانية. وكان من الطبيعي أن يترك هذا التحول شعورا بالامتعاض وسط الفئات المحرومة التي أصبحت تنظر إلى الكنيسة بعد التحالف الذي جمعها بالسلطة السياسية في مطلع القرن الرابع على أنها ذلك الجهاز السلطوي المسخر لخدمة مصالح الدولة الرومانية، وبالتالي لا يمكن الاعتماد عليها في النضال من أجل تحسين أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية، هذا الإحساس الذي دفع نسبة كبيرة من المسيحيين إلى الانفصال عن الكنيسة الكاثوليكية والانضمام للدوناتية، وهكذا تحولت هذه الأخيرة من مجرد انشقاق في الأوساط اللاهوتية إلى حركة ذات طابع أيديولوجي معادية للسلطة الرومانية تضم العناصر المعادية للنظام السياسي والاقتصادي-الاجتماعي.

ثانيا الصراع الجدلي

اعتمد الدوناتيون والكاثوليك عل تأويل بعض النصوص الواردة في الكتاب المقدس لتدعيم وجهات نظرهم حول المبادئ التي نادوا بها. ونذكر في هذا الصدد على سبيل المثال

ولا للحصر تذكير الدوناتيين خصومهم الكاثوليك عند تطرقهم للاضطهاد المسلط عليهم بنص له علاقة بهذا الموضوع، وإن لم يكن المقصود به اضطهاد الكاثوليك للدوناتيين بل الاضطهاد الذي سلطه الوثنيون على المسيحيين، ورغم ذلك لم يجد الدوناتيون مانعا في الاعتماد عليه لتبرير موقفهم كما لو أن الله أخبرهم بما سيصيبهم من ضرر على يد خصومهم حين قال في كتابه "أرسلتكم كالنعاج وسط الذئاب"[1]، مشبهين أنفسهم بهذا الحيوان الضعيف العاجز عن مقاومة الذئاب الذين يمثلونهم بالكاثوليك. فيرد عليهم الكاثوليك أن الفرق بين اضطهادهم لهم و اضطهاد الدوناتيين للكاثوليك هو أنهم يناضلون من أجل الكنيسة، أما ما يقوم به الدوناتيون فهو ضد الكنيسة.[2] وكانوا عندما يحتجون على العرائض التي تقدم بها الكاثوليك للسلطة لتتدخل ضدهم يذكرونهم بقوله تعالى "ملعون ذلك الذي يضع ثقته في الإنسان"، فيجيبهم الكاثوليك أنهم لم يضعوا ثقتهم في الملوك مضيفين أن مطالبتهم بتدخل الأباطرة ضد الكنيسة الدوناتية كان لمصلحة الكنيسة.[3]

هذا وكان موضوع طهارة الكنيسة وطهارة رجالها وضرورة الانفصال عن المدنسين بالكفر من المواضيع الساخنة التي تجادل حولها الطرفان. فلقد استعان الدوناتيون في هذا المجال بالنصوص التي تنص على ضرورة الفصل بين الطاهر والمدنس، كالنصين الذين ذكرهما الأسقف بارمينيانوس "Parmenianus"جاء في الأول "ما الذي يجمع بين القمح والتبن "[4] أي بين الطاهر والمدنس، وورد في الثاني "ابتعدوا، ابتعدوا، اخرجوا من هنا و تجنبوا الاتصال بما يدنسكم، اخرجوا من هذا الوسط وانفصلوا عنهم".[5] هذا وإن خطر

1- Matthieu, 16. d'après S.Augustin, Contra Litteras Petiliani, II , 73 , 163, P.L., XLIII, col . 309

2- S.Augustin, Contra Litteras Petiliani,II,88,195, P.L., XLIII,col.320-321

3- Jérémie, XVII.5,d'après S.Augustin, Lettre, 105

4- Ibid., XXIII, 28, d'après S.Augustin, Contra epistolam Parmeniani, III, 3, 17, P.L., XLIII, col. 95-96

5- Isaïe, LII, 11, d'après S.Augustin, ibid., III, 4,20, P.L., XLIII, col. 98

التدنيس الذي يهدد المؤمن يزداد في نظرهم بازدياد أهمية مكانة المذنب في السلك الكهنوتي، بحيث يؤثر ذنب الأسقف على كل المسيحيين الذين كلف بالسهر على مصالحهم طالما أن مهامه لا تقتصر على الجانب الروحي وإنما تشمل كل ما له علاقة بحياة الإنسان، وبالتالي فإن الأسقف المذنب والغير المنصف يبقى عاجزا عن إنصاف الناس وغير قادر على حثهم على فعل الخير. كما أن اتصال المسيحيين بهذا الأسقف المذنب الذي يكمن ذنبه في ارتداده عن المسيحية أثناء اضطهاد دقليانوس يفقدهم كل الخصال الحميدة التي نصت عليها المسيحية.

عارض الكاثوليك ما ذهب إليه الدوناتيون من ضرورة الفصل بين الشخص الطاهر المحافظ على مبادئ المسيحية والمدنس الذي ضعف أثناء الاضطهاد، معتبرين الضعف ظاهرة طبيعية والإنسان معرض لارتكاب الأخطاء. واستندوا فيما توصلوا إليه إلى القول القائل "الذي لا يخطئ هو الذي أنجبه الله"[1]، ثم يضيفون قوله تعالى الذي يأمر فيه بضرورة السماح للمذنب بالعيش إلى جانب الطاهر في الدنيا حتى يوم القيامة حيث يفصل أحدهما عن الآخر إذ يقول "اترك القمح ينمو إلى جانب الشيلم حتى يحين وقت الحصاد".[2] ولما كان المقصود بالحصاد يوم القيامة وبالحقل الذي ينمو فيه القمح والشيلم العالم الذي نعيشه وبالقمح الإنسان الطاهر وبالشيلم الإنسان المدنس، يصبح مفهوم النص كالآتي: عيش الطاهر والمدنس جنبا إلى جنب حتى يوم القيامة حيث يفصل بينهما، ويحاسب كل منها على أعماله.

ومما تجدر الإشارة إليه أن مفهوم الطهارة لا ينحصر لدى الدوناتيين في الطهارة الروحية بل هي في اعتقادهم طهارة كل النفس البشرية،كما أنها تعكس القيمة الحقيقية للشخص بما فيها القيمة الخلقية والاجتماعية، في حين يعتبرها الكاثوليك مستقلة عن قيمة الفرد ويفصلون

1- Jean, III, 9, d'après S.Augustin, ibid., II, 7, 14, P.L., XLIII, col, 58

2- Matthieu, III, 9,d'après S.Augustin, Ad catholicos epistola contra donatistas, XIV, 35, P.L., XLIII, col, 417-418

بين المكانة الخلقية للفرد التي هي حسب رأيهم مسألة خاصة وبين القيمة الاجتماعية التي يكسبها الإنسان بفضل الوظيفة التي يمارسها. وكان هذا المفهوم الذي وضعه الدوناتيون للطهارة من العوامل التي شجعت البسطاء على الانضمام للكنيسة الدوناتية، بحيث أصبحت هذه الأخيرة بعد انفصالها عن الكنيسة الكاثوليكية المتحالفة مع السلطة السياسية تعبر في نظرهم عن رفضها لوجود الأقلية الغنية التي تستغلهم غير مبالية بمبادئ العدل والمساواة التي نادت بها المسيحية، هذه الأقلية التي لقيت كل التأييد من طرف الكنيسة الكاثوليكية التي أصبحت نظرتها للفرد لا تختلف عن نظرة المجتمع له، هذا الأخير الذي رفض السكان الأصليين نظامه مثلما رفض زعماء الدوناتية تدخل السلطة السياسية في الشؤون الدينية مثلما يتضح من رد الأسقف دوناتوس على باولوس "Paulus"وماكاريوس"Macarius" في سنة 347 حين أجابهما قائلا "ما علاقة الإمبراطور بالكنيسة Quied est imperatorum ecclesia".[1]

يدعم الدوناتيون هذه النظرية بتأويل بعض النصوص من الإنجيل من بينها قول للقديس بولس ذكره الأسقف بيتيليانوس"Petilianus " يقول فيه "لا تتصلوا بالكفار ،فما هي العلاقة التي يمكن أن توجد بين العدل والظلم".[2] هذا النص الذي يكشف عن محاولة الدوناتيين للربط بين الحياة الدينية والاجتماعية، فهم يرفضون التعامل مع الذين ضعفوا أثناء الاضطهاد و الذين أصبحوا في نظرهم كفارا مثلما يرفضون التعامل مع السلطة السياسية الظالمة، هذا الظلم الذي أحسوا به عندما رفضت هذه الأخيرة الاعتراف بهم وحرمتهم من الحقوق والامتيازات التي استفاد منها الكاثوليك. ونجحت الكنيسة الدوناتية بفضل هذا الربط الذي أوجدته بين الجانب الديني والحياة الاجتماعية كسب تأييد السكان الأصليين الذين لم يفرقوا بين الظلم الواقع على الكنيسة وبين الظلم الاجتماعي الناجم عن التمييز الاجتماعي والسياسة الضريبية.

1- Optatus, III, 3-4, P.L., XI, col, 399,999-1011
2- II Cor.VI, 14,15,d'après S.Augustin, Contra litteras Petiliani, II, 40, 95, P.L., XLIII, col,294

زيادة على ما تقدم لم يسمح الدوناتيون بعودة المرتدين إلى الكنيسة معبرين بذلك عن رغبتهم في قطع كل صلة بالكنيسة الكاثوليكية المذنبة، وخلافا لذلك اتبع الكاثوليك نهج الأسقف القرطاجي كيبريانوس "Cyprianus" إذ رحبوا بانضمام المسيحيين الذين سلموا الكتب المقدسة أثناء الاضطهاد من جديد إلى الكنيسة، كما لم يوافقوهم في اعتقادهم الراسخ كون أن المؤمن يدنس بأخطاء غيره مدعمين رأيهم برأي كيبريانوس الذي استند بدوره على ما نادت به المسيحية من مبادئ لا تحمل الفرد مسؤولية أعمال غيره.[1] وإذا كانت رغبة الدوناتيين في قطع صلاتهم بالكنيسة الكاثوليكية تعبر عن إصرارهم على ضرورة المحافظة على طهارتهم التي قد تدنس عند اتصالهم بالكاثوليك، فهي ترجع بالدرجة الأولى إلى تحالف الكاثوليك مع السلطة السياسية وما ترتب عنه من تقبلهم للنظام الروماني المنافي لمبادئ المسيحية. كما حاولوا من خلال مبدأ الانفصال عن المرتدين التأكيد على أن الكنيسة الدوناتية هي الممثلة الحقيقية للكاثوليكية طالما أن أتباعها صمدوا و لم يضعفوا أثناء الاضطهاد[2]، وبالتالي فهي الوحيدة التي لم تنحرف عن مبادئ المسيحية والوحيدة التي حافظت على طهارتها. ولعل الرسالة التي سلموها للبر وقنصل أنولينوس "Anulinus" تحت عنوان "رسالة الكنيسة الكاثوليكية Libellus ecclesiae catholicae "[3] أحسن معبر على مطالبتهم بلقب "الكنيسة الكاثوليكية" منذ بداية الانشقاق الديني، رافضين كل الألقاب التي أطلقها عليهم الكاثوليك كلقب فريق دوناتوس "Pars Donati".[4]

أثارت مشكلة الارتداد نقاشا حادا بين الكاثوليك والدوناتيين حول صلاحية المهام الدينية التي يباشرها رجال الدين الذين ضعفوا أثناء الاضطهاد، لاسيما فيما يتعلق بطقس

1 - Cyprianus, Epistula, LV,VI,1 ; LV,XXVII,2

2- S.Augustin, Contra donatistas epistola Vulgo de unitate ecclesiae, IX,23, P.L., XLIII,col, 407

3-.Augustin, Lettre, 43 ;88

4- Passio Donati,3, P.L., VIII, col, 673

التعميد. ففي الوقت الذي استقبلت الكنيسة الكاثوليكية المرتدين الذين عادوا إلى المسيحية دون إعادة تعميدهم، نادى الدوناتيون بإعادة تعميد كل المسيحيين الذين ينضمون للكنيسة الدوناتية.[1] ليس هذا فحسب بل يعتقد الدوناتيون أن التعميد لا يكون صحيحا إلا إذا أداه أساقفة اشتهروا بالإيمان والأخلاق الحسنة[2]، وبالتالي لا يجوز للكاهن والأسقف المتهم بتسليم الكتب المقدسة مباشرة التعميد.[3] ويدعم الأسقف بيتيليانوس هذا الرأي بنص من الكتاب المقدس جاء فيه "الشجرة الجيدة تكون فواكهها جيدة أما الشجرة اليابسة فهي لا تقدم فواكه جيدة. وهل يقطف العنب من الأشواك"[4]، مبررا بذلك أن التعميد لا يكون له أي مفعول إلا إذا كان الشخص الذي يؤديه صالحا طالما أن الإنسان الفاسد خلقيا لا يستطيع إفادة غيره، وبالتالي لابد من إعادة تعميد كل المرتدين وكل الذين تم تعميدهم من طرف الأساقفة المرتدين.

ثالثا موقف الدوناتيين من الكاثوليك في الحياة اليومية

دخل الصراع الدوناتي الكاثوليكي الحياة العملية تجسيدا للمبادئ التي نادوا بها. فلقد حرم الأساقفة الدوناتيون زواج الدوناتيات بالكاثوليك، كما حرم على الدوناتيين تبادل أطراف الحديث مع الكاثوليك ومبادلتهم التحية والجلوس معهم، ورفضوا مخاطبتهم بعبارة "الأخ" أو "الأخت"[5] المعبرة عن ذلك التضامن والإخاء الذي كان يجمع المسيحيين، بل و أيضا قطع كل العلاقات المادية التي جمعتهم بهم قبل الانشقاق الديني، بحيث يشير الأسقف

1- S.Augustin, Lettre,23

2-Optatus.V,4-7, P.L.,XI, col.1051-1060 ;S.Augustin, Contra litteras Petiliani, II, XIX, 22, P.L., XLIII, col, 358

3-.Augustin, De baptismo contra donatistas, IV,X,16, P.L., XLIII, col ,164

4- Matthieu, XVII, 17,16, d'après S.Augustin, Contra Cresconium, XI, 14, P.L., XLIII, col,502

5- Optatus, I, 3 ; IV,2 ;IV,5, P.L., XI, col, 890-891, 1029-1030,1033

أوغسطين أن فوستينوس "Faustinus" الأسقف الدوناتي بمدينة عنابة (Hippo Regius) حرم على الخبازين التابعين لأسقفيته تقديم الخبز للكاثوليك المقيمين بالمدينة.[1]

عملا بمبادئهم لاسيما مبدأ الانفصال عن المدنسين بالكفر لم يسمح الدوناتيون بدخول الكاثوليك للأماكن التي دفن فيها قديسي الكنيسة الدوناتية، كما حرموا عليهم دخول كنائسهم. وتشير كتابات رجال الدين في هذا السياق إلى تعيين الدوناتيين بمدينة عنابة(Hippo Regius) كاهنا لحراسة كنائسهم ومنع الكاثوليك المتطفلين من دخولها، وحرموا عليهم أحيانا دفن موتاهم في المقابر التابعة للكنيسة الدوناتية،كما أنهم لم يؤدوا شعائرهم الدينية في الكنائس التي انتزعوها من الكاثوليك إلا بعد تطهيرها، إذ كانوا يحطمون الأثاث الموجود بداخلها ويبيعون الباقي، ويحرقون المحراب أو يقشرونه معتقدين أن ذلك يزيل آثار أيدي الملوثين، ثم يغسلون بلاط الكنائس وجدرانها بالماء المالح.[2]

وكانوا يخضعون الكاثوليك الذين ينضمون للكنيسة الدوناتية لعقوبة تتفاوت قسوتها ومدتها من مجموعة لأخرى حسب خطورة الذنب المرتكب، بحيث قد تتراوح بين سنة وشهر بالنسبة للبعض في حين لم تتجاوز يوما واحدا بالنسبة للمحظوظين ثم يعيدون تعميدهم، أما العقوبة المفروضة على الأساقفة والكهان كانت أشد قسوة من تلك التي تعرض لها غيرهم، بحيث كانوا يعمدون ثم يخضعون لفترة تدريبية ضمن صفوف المدنيين "Laïcus" ويدمجون مع المبتدئين في السلك الكهنوتي، هذه العقوبة التي لم ينجو منها سوى بعض الأساقفة و الكهان الذين لم يحرموا من مناصبهم التي كانوا يحتلونها عندما كانوا تابعين للكنيسة الكاثوليكية.[3]

يكشف ا الموقف الذي اتخذه الدوناتيون من الكاثوليك عن المضامين الثلاثة (الدينية، الاجتماعية والسياسية) التي تضمنتها الدوناتية. يتمثل المضمون الديني في انفصال الدوناتيين

1- S.Augustin, Contra Litteras Petiliani, II,83,184, P.L., XLIII, col. 316
2- Optatus, II,21 ;VI,1 ; VI,7, P.L., XI, col. 977-978, 1066-1068, 1080
3- Ibid., II,19 ;II,21 ;II,24-25, P.L., XI, col, 972-973 ; 976-977 ; 979-984

عن الكاثوليك المدنسين بالكفر، معتقدين أن هذا الانفصال يسمح لهم بالمحافظة على طهارتهم . ويظهر المضمون الاجتماعي واضحا من خلال قطع الدوناتيين للعلاقات الاجتماعية التي كانت تجمعهم بالكاثوليك قبل الانشقاق الديني. وينبغي التذكير أنه حتى وإن سعى رجال الدين من وراء ذلك تطبيق المبادئ التي نادت بها الكنيسة الدوناتية والتي كانت سببا في انفصالهم عن فريق كيكليانوس، فإن هذا لا يمنع من أن يكونوا في نفس الوقت مثلهم مثل باقي الدوناتيين لاسيما البسطاء يعبرون من خلال قطع هذه العلاقات عن رفضهم للأوضاع الاجتماعية القائمة. كما يتضح المضمون الاجتماعي من خلال امتناع الدوناتيين عن مخاطبة الكاثوليك بعبارة "الأخ" و"الأخت" التي لم تكن مجرد عبارة تخاطب بقدر ما كانت تحمل مفهوما اجتماعيا،فهي تعبر عن تلك المشاركة التي عرفها المسيحيون في القرن الثالث حين كانوا يواجهون صعوبات الحياة. لكن ما أن تنصرت السلطة حتى تحالفت معها الفئة المسيحية الثرية نتيجة الامتيازات التي حصلت عليها، والتي تخلت عن مساندة المسيحيين البسطاء في نضالهم لتغيير أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية السيئة. وكانت النتيجة الحتمية لهذا الوضع الجديد تغير نظرة هؤلاء البسطاء للمجموعة التي تخلت عنهم، واعتبروا موقفها هذا تخلي عن مبادئ المسيحية المناهضة للضيم الاجتماعي وبالتالي لابد من الانفصال عنها.

ويخفي المضمون الاجتماعي المضمون الثالث المتمثل في مقاومة الدوناتيين للسلطة باعتبارها المسؤولة عن تلك الأوضاع. ولعل ما يساعد في الكشف عن هذا المضمون هو عدم احترامهم للقوانين التي أصدرتها السلطة السياسية ضدهم، أو تلك التي كانت لصالح الكاثوليك كإجبار رجال الكنيسة على تحمل أعباء الكوريال بعد أن كانوا معفيين منها. ويعبر موقفهم هذا عن رفض زعماء الدوناتية لتدخل السلطة السياسية في الشؤون الدينية. و إذا ما يبدو للوهلة الأولى أن الأهداف الاجتماعية والسياسية كانت قد حددت بالدرجة الأولى من طرف أنصار الدوناتية الذين لم يفرقوا بين الاضطهاد الديني والضغط الاجتماعي الناجم عن السياسة الضريبية والحصار الوظيفي، فإن زعماء الكنيسة الدوناتية سعوا بدورهم

إلى تحقيقها وإن لم تكن واضحة في البداية. أما الأهداف السياسية فهي وليدة التطورات الاقتصادية والاجتماعية والدينية التي عرفتها المنطقة خلال القرن الرابع. ولما كانت الأهداف المذكورة مشتركة بين الطرفين لم يعارض رجال الكنيسة الدوناتية انضمام البسطاء، خاصة الثوار الريفيين أو كما عرفوا آنذاك باسم الدوارين"Circumcelliones" إلى كنيستهم.

وقد يتأكد هذا التفسير عند معرفة التطور الذي عرفه الصراع الدوناتي—الكاثوليكي، إذ يتضح من المصادر اقتصار الدوناتيين في البداية على العصا لمواجهة الكاثوليك عملا بمبادئ المسيحية التي تنص على عدم إراقة دماء المسيحيين، لكن وبعد مرور فترة زمنية تخلوا عن العصا وعوضوها بالفأس والرمح والسيف.[1] ويرجع هذا التغيير إلى ظهور عناصر في صفوف الدوناتية غير مقتنعة بالعصا التي لم تحقق لها أغراضها، وإذا ما كان هذا التغيير يتعارض مع مبادئ المسيحية فهو لم يلقى معارضة زعماء الدوناتية، هؤلاء الذين أصبحوا هم أيضا يستعملون هذه الأسلحة.

رابعا موقف الكاثوليك من الدوناتيين

إذا ما عرف الدوناتيون بمقاومة الكاثوليك سواء من خلال قطع العلاقات التي كانت تجمعهم أو باستخدام العنف ضدهم، فإن نشاطهم الديني كان ضعيفا عكس خصومهم الكاثوليك الذين حاولوا القضاء عليهم من خلال عقد المجامع الدينية التي تفوق بكثير المجامع الدوناتية، هذه الأخيرة التي لم تتجاوز مجمعين، عقد الأول بمدينة قرطاجة سنة 336 وتوصل إلى مجموعة من القرارات لا تزال مجهولة باستثناء القرار الذي يسمح بعودة الكاثوليك إلى الكنيسة الدوناتية دون إعادة تعميدهم، وعقد الثاني بنوميديا في سنة 348 ألغى ما توصل إليه مجمع سنة 336 بخصوص التعميد.[2]

---

1 -S.Augustin. Lettre,88 ; Contra Litteras Petiliani, II,96,222, P.L., XLIII, col,333
2- Id., Lettre, 93

عرفت المجامع الكاثوليكية مرحلتين، تميزت الأولى بالضعف حيث لم يعقد خلالها سوى مجمعين في حين شهدت المرحلة الثانية حركة نشيطة في هذا المجال بدأت بتولي الأسقف أوغسطين مهامه الدينية بأسقفية عنابة (Hippo Regius) سنة 392 ومجادلته لزعماء الدوناتية. ولقد توصل أول مجمع كاثوليكي عقد بمدينة قرطاجة سنة 348 إلى مجموعة من القرارات نكتفي بذكر قرارين لهما علاقة بالدوناتية، ينص الأول على ضرورة التخلي عن إعادة تعميد المنشقين عن الكنيسة عند عودتهم إليها، وينادي الثاني بحرمان كل من يلقي بنفسه في الفراغ أو غيرها من الطرق التي اتبعها الدوناتيون لتحقيق رغبة الاستشهاد من شرف الحصول على لقب الشهداء.[1] وإذا كان الكاثوليك بما توصلوا إليه في مجمع سنة 348 يوافقون على القرارات التي توصلت إليها مجامع ما وراء البحار وعلى رأسها مجامع روما، فلقد استغلوا رفض بعض المسيحيين الانضمام للكنيسة الدوناتية بسبب رفضهم لمبدأ إعادة التعميد وعملوا على جلبهم للكنيسة الكاثوليكية، لاسيما بعد أن أصر المجمع الدوناتي لسنة 348 على هذا المبدأ، كما حرسوا على وضع حد لظاهرة الاستشهاد التي كانت منتشرة في أوساط الدوناتيين.

يستخلص من هذين القرارين رغبة الكاثوليك في حرمان الدوناتية من القاعدتين الأساسيتين اللتين قامت عليهما، معتقدين أن هذا الحرمان سيدفع أتباع الكنيسة الدوناتية إلى التخلي عنها بعد تخليها عن مبدأ إعادة التعميد والاستشهاد، هذا التخلي الذي يعتبرونه تراجعا عن مبادئها وخضوعا للكنيسة الكاثوليكية صاحبة هذا القرار وفي نفس الوقت خضوعا للسلطة السياسية المتحالفة مع الكنيسة الكاثوليكية، هذا الخضوع الذي لا يمكن تقبله. هذا وتمسك رجال الكنيسة الكاثوليكية بقرارات مجمع سنة 348 التي أقرها مجمع سنة 39، هذا الأخير الذي قرر زيادة على ذلك استقبال رجال الدين الدوناتيين الذين يعودون

1- C.Munier, Concilia Africae (345-525) ,C.C., séries latina, CXLIX. Turnholti, Typogra Brepols editores Pontificii, 1974, p. 4

للكنيسة الكاثوليكية ضمن المدنيين، والسماح للذين لم يمارسوا إعادة التعميد وللذين يجلبون معهم كل أتباعهم بالبقاء بمناصبهم الدينية، كما اقترح إمكانية تعيين الكهان من بين الذين عمدوا في صغرهم في الكنيسة الدوناتية.[1]

حرست الكنيسة الكاثوليكية منذ ظهور الدوناتية على استشارة كنائس ما وراء البحار فيما تتخذه من قرارات للقضاء على الدوناتية، بل أكثر من ذلك فهي لا تنفذها إلا بعد الحصول على موافقتها. غير أن ارتفاع عدد الضحايا الكاثوليك نتيجة الصراع الدموي الذي كان قائما بينهم وبين الدوناتيين زيادة على الاضطرابات التي عرفتها الكنيسة و التي شغلتها عن مواصلة حركة التنصر قررت الكنيسة الكاثوليكية ضرورة حل الخلاف الموجود بينها و بين الكنيسة الدوناتية دون استشارة كنائس ما وراء البحار.[2] وتجسيدا لهذا القرار صادق مجمع قرطاجة المنعقد في 13 سبتمبر سنة 401 على قرارات مجمع سنة393 المشار إليها أعلاه رغم معارضة البابا أنستاز "Anastase"، ونص على التفاوض مباشرة مع الدوناتيين وتشكيل وفد من الأساقفة للقيام بهذه المهمة.[3] وحاولوا إدخال مشروع المفاوضات حيز التنفيذ في مجمع 25 أوت سنة 403 حيث وافقوا على أن يرسل كل أسقف دعوة لخصمه الدوناتي الموجود معه في نفس الأسقفية لحضور الاجتماع،كما نص المجمع على اختيار ممثلين للطرفين ليدافع كل واحد عن مبادئ كنيسته.[4] ورغم المجهودات التي بذلت لتحقيق ذلك لم يجتمع الطرفان بسبب رفض الدوناتيين .

اضطر الكاثوليك أمام هذا الرفض وأمام تزايد خطر الثوار الريفيين (الدوارين) المتحالفين مع الكنيسة الدوناتية إلى عقد مجمع بقرطاجة في 16 جوان سنة 404 اتفقوا فيه على ضرورة طلب الحماية من الإمبراطور، كما طالبوا بدمج الدوناتيين بأصحاب البدع وبتطبيق القانون

1- Ibid., pp.23-27
2- Ibid., pp.194-198
3- Ibid., pp.198-204
4- Ibid., pp.208-211

الذي أصدره الإمبراطور تيودوزيوس في 15 جوان سنة 392 والذي يفرض غرامة قدرها عشر ليرات ذهبية على أصحاب البدع.[1] ولما تعددت محاولات الاغتيال التي تعرضوا لها عقـــدوا مجمعا في23 أوت سنة 405 طالبوا فيه بإعادة الوحدة الدينية[2]، وفي ســـنة 406 ولأول مـــرة يتقدم الدوناتيون اثر الاضطهاد التي تعرضوا له بموجـــب المراســـيم الإمبراطوريـــة بطلـــب للسلطات الرومانية يطالبون فيه الاجتماع بالكاثوليك[3]، لكن طلبهم رفـــض لأن الدولـــة كانت قد فرضت إعادة الوحدة الدينية.

تدل المجامع الكاثوليكية والعرائض التي تقدم بها الكاثوليك للسلطة السياسية لمســـاندتهم في تصديهم للدوناتيين على ذلك التحالف الذي وجد بينهما، كما تكشف عن فشلهم في القضاء على الدوناتية، هذا الفشل الذي دفعهم إلى عقد مجمع في 14جوان سنة 410 اتفقـوا فيه على تقديم عريضة للسلطة يطالبون فيها بإعادة الوحدة الدينيـــة، و بعقـــد اجتمـــاع يجمعهم بالدوناتيين تحت إشراف السلطات السياسية.[4] فرحب الإمـــبراطور هونوريـــوس "Honorius" بهذا الطلب، وعين السيناتور ماركيلينوس"Marcellinus" لـــترأس الاجتمـــاع الذي خصص لدراسة أسباب الصراع الدوناتي- الكاثوليكي وجمع شمل المسيحيين، وافتتح هذا الاجتماع في أول جوان سنة 411 بمدينة قرطاجة لينتهي في الثامن من نفـــس الشـــهر لصالح الكاثوليك، إذ يعترف ماركيلينوس بالكنيسة الكاثوليكية باعتبارها الممثلة الحقيقيـــة للكاثوليكية ويأمر بإعادة الكنائس الدوناتية للكاثوليك زيادة على منع الدوناتيين من عقـــد

1 -Codex Theodosianus, XVI, 5,21 ; XVI, 6,4. Ed. Th. Mommsen, P. Meyer, 2e édition, Berlin,1954

2- C.Munier. op.cit., p. 214

3- S.Augustin, Breviculus collationis cum donatistis, III, 4,5, P.L., XLIII, col,626

4- C. Munier, op.cit., p.220

اجتماعاتهم.[1] و تتلخص أهم محاور النقاش الذي دار بين الكاثوليك والدونـــاتيين في هـــذا الاجتماع في الآتي[2] :

- صحة أو بطلان التهم الموجهة للكاثوليك المتعلقة بتسليم الكتب المقدسة، وعدم محافظتهم على طهارة الكنيسة.

- أين توجد الكنيسة الكاثوليكية الحقيقية؟ هل هي عند الدوناتيين أم عند الكاثوليك؟

- احتجاج ممثلي الكنيسة الدوناتية على الاضطهاد الذي شنته السلطة السياسية ضدهم

- احتجاج ممثلي الكنيسة الدوناتية على العرائض التي تقدم بها الكاثوليك للسلطة السياســية والتي طالبوا فيها بتدخلها ضد الدوناتيين، وعلى مساندهّا لهم.

1-Actes de la conférences de Carthage en 411. Introduction de Serge Lancel, tome1. Paris, Sources Chrétiennes, 1972/1975, p102, tome3, pp.975-979

2-Ibid., tome 3, pp. 929, 997,1069